

أثر التنشئة الثقافية الوطنية في بناء الأمن الثقافي:  
تكوين الذائقة الجمالية السمعية للناشئة بالمدرسة الجزائرية أنموذجا

The effect of national cultural upbringing in  
constructing cultural security: سلطان  
Formation of musical aesthetic taste for young people in the  
Algerian school as a model.

نجيب شيشون\*، المدرسة العليا للأساتذة  
الشيخ محمد البشير الإبراهيمي- القبة  
nadijb.chichoune@g.ens-kouba.dz

تاريخ القبول: 07/01/2024

تاريخ الاستلام: 30/11/2023

**ملخص:**

تستهدف هذه المحاولة البحثية إثارة إشكالية غالبا ما لا يُنتبه بوعي كاف لمدى مركزيتها في المجتمعات العربية، وإن بات الشعور الجمعي ينتابه إحساس بالتيه؛ عندما يتعلق الأمر بتتبع طريق الحياة وأسلوب عيش العنصر البشري في اتصاله باللون الثقافى المعبر عن أبعاد هويته. يحدث هذا، حين أصبح الأفراد مشوّش عليهم أكثر من أي وقت مضى، بكم هائل من الألوان والأشكال التعبيرية متعددة الجنسيات، والتي تُروّج لثقافات لا تمت في غالب الأحيان بصلة لما هو وطني. خاصة مع ما أتاحتها الإمكانيات التكنولوجية الحديثة، المدعومة بمُحدثات الذكاء الاصطناعي من قوّة تأثير وسرعة اختراق، فأصبح التحدي المُريك مع هاجس "تآكل الثقافات المحلية"، السعي للجّم ما خلّفه هذا الوضع من شرود لا سيّما لدى شريحة الشباب. وسيكون ذلك ممكنا باسترعاء الانتباه الجمعي، إلى أهمية إبقاء الارتباط واللحمة بانتماءات وعيه الذائقي المتشرب من كل ما يرمز لـ "روح الوطن". وإن البداية الموثوقة لن تكون سوى بالتبكير مع الناشئة؛ بزرع وتكوين حواجز ذاتية وجدانية في ضميرهم، من شأنها صيانة

\* المؤلف المراسل

توجهاتهم وميولاتهم. ولعل برامج تكوين السمع والذائقة الجمالية للناشئة بالمدرسة، تأتي في مقدمة النماذج الفاعلة لتكريس آداب التعاطي الإيجابي مع مكونات الرصيد الثقافي الوطني، إذ تُستغل عناصر هذا النشاط في تعليم آداب الاستماع والإصغاء والحوار للمتعلمين، والتي تُعد أساس باقي الآداب. في الحقيقة، رعاية سبل صيانة الأمن الثقافي لا يقل أهمية عن استراتيجيات الأمن الغذائي أو الأمن القومي، باعتبار الأمن الثقافي عاملا أساسيا يبيث في الشعب إرادة الحياة والاستمرار.

**الكلمات المفتاحية:** الأمن الثقافي- الهوية الوطنية - التنشئة الثقافية - تكوين السمع الموسيقي-الذائقة الجمالية.

#### **Abstract:**

This article aims to talk about a problem which is often not noticed, with sufficient awareness in Algeria and most of Arab societies. It wants to explain the importance of attracting the people's collective attention, in order to maintain their link with the components of the national culture and the dimensions of their identity. The purpose is to conserve the lifestyle of the human element in contact with the cultural color that expresses the national cultural identity, and to preserve the trends of the tastes of the generations. This supposed link has become more confused than ever with a large number of multicultural expressions supported by new technologies and artificial intelligence. Thus, the methods diversified and accelerated until they imposed on people, fearing the “eroding local cultures”, an obligation to seek to nationalize the preservation of the central values of society, by planting taste and emotional barriers in the collective national consciousness, especially with media's strong impact and speed of penetration. Therefore, listening and aesthetic taste training programs, for young people in school, become at the forefront of effective models for enshrining the label of positive interaction with the components of the national cultural baggage. These basis activities are exploited to teach the learners the etiquette of good listening, communication and education of taste. In fact, the preservation of cultural security is not less important than food or national security, since cultural security is an essential factor that instills in people the will for life and continuity.

**Keywords:** Cultural Security, National identity, Cultural upbringing, formation of music listening, Aesthetic Taste. □

### مقدمة:

ساهم الرصيد الثقافي في الجزائر على غرار باقي الوطن العربي، في تشكيل وتوطيد روابط قوية، بين أفراد المجتمع ومختلف معالم وعناصر هويته الثقافية، باعتبار أن الهوية الثقافية هي "الجو الذي يمتص الفرد تلقائياً عناصره، من ألوان وأصوات وحركات وروائح وأفكار، يتلقاها لا بوصفها معاني ومفاهيم مجردة، ولكن بوصفها صوراً مألوفة يستأنسها منذ مهده" (بن نبي، 1971، 90)، تجسدت من خلال تلك المعالم على غناها، "مجموع المعارف النظرية والعملية والأساليب التي حدّدت طريق الحياة وأسلوب العيش" (مونس، 1978، 15) في الوطن، تحت مظلة الثقافة باعتبارها تعني الوجود كما صنعه الإنسان. وهكذا، فدور الثقافة في الوطن العربي الكبير، لا يُستهان به في مختلف مراحل البناء والصيانة، في الدّود، والحفاظ على روح الدولة الوطنية، بفضل طبعها لأسلوب حياة المجتمع وسلوك الفرد.

لكن مع تتالي طلائع الغزو الثقافي، تنمّة لخطط واستراتيجيات "السباق الخطر في مجال القوة بين الدول المتقدمة، التي من أهدافه الرقابة على الجماهير وعلى المساحات" (بن نبي، 122)، فقد أفلحت تلك الخطط بمختلف الأساليب التي انتهجتها، في "تكوين أجيال تنظر إلى ماضيها على أنه أنقاض أو مخلفات ينبغي أن تستخفي، ليحل محلها البناء الجديد الذي وضع الغرب حقيقته وصورته" (الغزالي، 1998، 32). بل ومع تفاقم مخلفات هذا الوضع، فقد أضحى الناس "يعيشون في عصرٍ فقد ملامحه<sup>1</sup>، منذ أن تطلّع في السنوات الأولى من الألفية

<sup>1</sup>وردت هذه الشهادة في استهلال المؤرخ البريطاني إيريك هوبزباوم (1917-2012) لكتابه أزمة متصدعة، الذي جزء هام من فصوله هو جمع وإثراء لكتابات له بين 1964 و2012، فهو شاهد متمرس على قسم واسع من أحداث القرن الأخير -لا سيما الثقافية- من الألفية الثانية بالتقويم الغربي، الذي ميّزته الحربين العالميتين وما تبعهما، وأورد نظرة ثاقبة عما آلت إليه حضارة العالم التي تتبّع انهيارها حتى أضحت استهلاكية بتناقضات العولمة، أو كما لقبها.

الجديدة إلى مستقبل غير معروف، بلا إرشادات وبلا خريطة هادية. وقد انتابه قدر من الحيرة المشوبة بالاضطراب" (هوبزباوم، 2013، 13).

من بين السياسات الغربية المعتمدة، والتي تحاول ربما، التغطية على رواسب هذا الوضع المحتوم، تلك التي تروج لبعض المبادئ العامة التي تستجدي الوجدان الجمعي البشري، في صورة حملات، عناوينها شعارات مثل السلام الدولي، وحوار الحضارات<sup>2</sup> والحوار بين الثقافات وغيرها، تُعقد لها ملتقيات ومؤتمرات من حين لآخر، وكثيرا ما تؤسس لها وكالات ومنظمات، وتحاول أن تسوّق لتلك الأوصاف التي تُثعت بالحوار والتعايش، تحضى مواضيع الحوار والتبادل الثقافي، وغيرها مما يتصل بالثقافة على نصيبتها، لكن ما يوازئها في واقع الحال من أفعال على مستويات أخرى هو خلاف الأفكار المعلنة. إن الكثير من تلك المحاولات للحوار والتعايش، وفي أحسن منطلقاتها، أصابها ما أصابها من عمليات الانحراف، التي حيدتها عن مسارها ومقصدها إن كان يعني حقا الحوار والتعايش، لأن شعارات التضامن والتآزر، والرعاية والتثقيف، وغيرها، أوصلت نتائجها في كثير من المحطات لتبدو على غير جنس ما رُوج له؛ وما الحقيقة التي فضحتها ممارسات موجات الاستعمار والاستغلال لمقدّرات الأمة عبر التاريخ بغائبة عن الوعي الجمعي.

وهكذا، فمع تنوع وتسارع الأساليب، إلى أن أُعلن علنا، عن حاجة العالم إلى صراع الحضارات<sup>3</sup>، -وهو الموضوع المناقش باستفاضة في اختصاصات أخرى، بل وستتبع النقاشات بخصوصه مستقبلا- لكن الذي يهمنا، أن تلك الحقيقة على المستوى الثقافي، قد أوصلت إلى إفراز ما يمكن وصفه بزمن "تآكل

<sup>2</sup> أعلنت كشعارات رسمت لها الأمم المتحدة أياما للذكرى: الأول منذ 1981، والثاني في 2001. يمكن الاستزادة في دعم الفكرة من كتابات صموئيل هنتنغتون (1927-2008) مثلا، أحد منظري السياسة الأمريكية معروفة النتائج في العقود الأخيرة، والذي دافع على فكرة صراع الحضارات كمخرج لضمان مصالح الغرب على حساب الشرق والذي حدّده صراحة بالعرب والإسلام والصين...، للاستزادة أنظر مثلا: صموئيل هنتنغتون (1999)، صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي، محمد عمارة (1998)، الحضارات العالمية تدافع أم صراع؟، بهجت القرني وآخرون (2003)، صناعة الكراهية في العالقات العربية الأمريكية، حامد الجنابي (2022)، صدام الحضارات في القرن الحادي والعشرين، مجلة مركز دراسات الكوفة، العدد 66، سبتمبر 2022.

الثقافات"، بعد اتّساع رُفَع الاستباحات، بما أتاحتها الإمكانيات التكنولوجية الحديثة والذكاء الاصطناعي من قوة اختراقٍ وسرعة نفاذٍ.

لا ينتظر الباحث من هذه المحاولة البحثية إثارة نص يطلّع عليه القراء بنظرة روتينية، إنما يتطلع من خلال المادة المدونة إلى إثارة تساؤلات استنهاضية في ذهن القراء، أملاها تعاضم مخلفات هذا الوضع المفروض. حين بات من السهولة ملاحظة، أن حظ الرجال من التحليل أقل من حظ الأحداث المتعاقبة كما يقول المفكر بن نبي (بن نبي، 98)، فيبرز وبالبحاح مفهوم "الأمن الثقافي-الروحي الوجداني- الذي لا يقل أهمية عن الأمن الغذائي أو الأمن القومي، باعتباره عاملاً أساسياً يبيث في الشعوب إرادة الحياة والاستمرار والحفاظ على سيادتها، وهو بمنزلة الدافع والمحفز لها في تعاطيها مع قضايا التنمية ومشروعاتها المستقبلية" (سعيدوني، 2021، 19). والبدائية تكون بالزامية التصدي لتوطين الاعتناء بالقيم المركزية للمجتمع، بفضل تكوين وزرع حواجز ذاتية وجدانية في الضمير الجمعي للوطن العربي، ستساهم، إن أفلحت، في تثبيت أو اصر التركيبة الثقافية والاجتماعية للوطن الكبير.

### 1. العوامل المؤثرة في تشكّل الاستعدادات الثقافية للإنسان الجزائري والعربي:

من المعلوم أن تشكّل الاستعدادات الذاتية التي تسمح بتشرب مكونات الرصيد الثقافي، يتأثر بالوسط والفضاء الذي ينشأ فيه الفرد، تتغذى تلك البيئة من مختلف المقومات الأساسية التي يستند إليها تراث الأفكار والمعارف والعادات والتقاليد والقيم والممارسات والطقوس الفنية، وغيرها من المقومات الثقافية والاجتماعية، وهي تتكون في الوطن العربي أساساً من:

– اللغة "الجامعة الموحدة" (سعيدوني، 16) كما أطلق عليها الحائز على وسام عالم الجزائر<sup>4</sup> لعام 2021 المؤرخ نصر الدين سعيدوني. ففي المجتمع العربي الفسيح

<sup>4</sup> في دورته رقم 12 سنة 2021، ووسام العالم الجزائري مشروع تبناه معهد المناهج تكريماً للعلم والعلماء، يُسلّم لعالم جزائري خدم وطنه، فترك أثراً علمية أو بحثية أو تربوية أو فكرية طيبة، نفع بها البلاد والعباد وهو تشريف للعالم الجزائري، الذي برز بإبداعاته في مجال من مجالات المعرفة والعلم، وكان شرفاً لوطنه، ومنارة عالمية أعلنت من شأن الجزائر، في المحافل العالمية والدولية. تأسست بموجب المادة 49 من القانون 06-12 المؤرخ في: 18 صفر 1433 هـ الموافق لـ: 12 جانفي 2012م المتعلق بالجمعيات. للاستزادة أنظر موقع المؤسسة الإلكترونية:

<https://algerianscholaraward.org>

لا تعدُّ هذه اللغة الموحدة إلا أن تكون اللغة العربية؛ بما تترتب عليه من رصيد ثري من المكونات والخصائص، ويوصفها اللسان المعبر عن القيم الثقافية للبلاد، عن كرامتها وفعاليتها، تلخص شخصية الإنسان العربي ذو التجربة الموغلة في القدم، مدعومة في الوطن الجزائري بلغة المكوّن البربري على تنوع ألسنه -المدسترة باسم اللغة الأمازيغية-، تُشكّل رافداً آخر من التراثات الزاخرة، والتي يجب أن تزيد الأهالي تشبُّثاً بوحدة الوطن وأكثر تلاحماً.

- "القيم والثوابت الحضارية.. وأسس المجتمع" (سعيدوني، 16)، والمستلهمة أساساً من تعاليم الدين الإسلامي السمح، ذو الانتشار الواسع في مختلف الأقطار العربية، مع احتواء تواجد أتباع شرائع أخرى في بعض الأقطار دون تحرُّج - عدا ما يتصل بـ"قضية الأمة"، أو على الأقل كما تتبناه الأمة الجزائرية ومن يوافق توجهها من بعض الأقطار الأخرى- باعتبار أن أجزاء من هذه المنطقة الشاسعة تُعد مهداً للحضارات والأديان.

بالإضافة إلى الدور العميق الذي يمثله رصيد الدين في توجيه وتشكيل أسس القيم والثوابت الحضارية للأمة، يستمد المجتمع كذلك أبعاد تلك القيم والثوابت من مشارب وتوجهات أنظمة كل من التعليم، والتكوين، والتسيير.

- التاريخ والتاريخ المشترك، والذي يُلخّص في أبعاد فكرة "المقاومة" بكل تجلياتها ومآثرها، والمتصلة حتماً بالرفيقة الجغرافيا ذات الموقع الاستراتيجي على مداه، وما طالها هي الأخرى عبر الزمن.

- بالإضافة إلى هذه العوامل الأساسية، نجد مجموع العادات والتقاليد والممارسات المرافقة لشتى المناسبات الحياتية، والتي تطبع أنماط العيش في المجتمع الجزائري وفي الوطن العربي.

ومن خلال تلك العوامل والمقومات الأساسية -لكن ليس دون غيرها- يتشكل الرصيد الفكري والثقافي والوجداني، الذي يؤثر بدوره في سلوك الفرد اتجاه المواقف المختلفة التي يواجهها طوال أطوار حياته، يطعم ذلك الرصيد، الرغبة الجامعة للإنسان الجزائري والعربي في حفظ التواجد وامتلاك الخصوصية، دون حرج في مواكبة مستجدات العالم، في تماسٍ مباشر مع ما يدور ويُستحدث مع بقية الشعوب حتى ولو يكون ذلك بشكل افتراضي.

لكن مع جسامه عمليات التشويش وتنوعها<sup>5</sup>، تعاظم الجدل حول بعض تلك العوامل - إن لم نقل أغلبها - بين أبناء الجلدة الواحدة، وذلك على مستوى بعض الأطر والمقاربات، لكن ما يُعتبر ذو عواقب منذرة، يكمن في الهوية الفائقة بين 'الوضع الكائن' و'ما يجب أن يكون'، ليس على مستوى بعض الأطر فحسب، بل على مستوى العمق المجتمعي كذلك. هذا الوضع خلفه إحساس الحيرة والشك من فرط التأثر، ومن ثمّ توجهات اللامبالاة والتخلي والعجز وسوء تقدير مآلات الأمور، كل ذلك مع شيء من التفاصيل تميز أزمات كل قطر عن باقي الأقطار باختلافها. وعليه "أصبحت المسألة الثقافية في الوطن العربي مجال احتكاك وتجاذب" (سعيدوني، 23)، ونتج عن التعاطي مع عناصرها المشوّش عليها انفلات وميوع في مساحات شرائحية واسعة من المجتمع، بدل أن تكون المسألة الثقافية عامل توحيد وقوة؛ عامل انتساب واعتزاز وراقي.

## 2. الواقع والأفق الثقافي:

تستأنس الشريحة العميقة الواسعة من المنتسبين للفضاء الجغرافي الجزائري بالخصوص كما العربي، في عميق وجدانها بالمفهوم الاجتماعي-النفسي للهوية العربية، باعتبارها ذلك الكمّ من التراكمات الثقافية والمعرفية، وذلك المركب المتجانس من الرموز والقيم والإبداعات المعبرة أساسا عن الخصوصية التاريخية للأمة. ويزيد الارتباط بهذه الهوية كلما استحضرت الشواهد والقرائن بالامتداد في الزمن الماضي امتدادا، والرسو عند المحطات الإنتاجية الإشعاعية الثقافية للتواجد العربي، وهو المنطلق الذي يجدون أنفسهم يستندون إليه كلما استحيوا فكرة إدراك ماضي ذاتهم الوجودية الجمعية.

لكن وبالمقابل، كلما استحيوا واقع حاضرهم واستطلعوا مستقبلهم، برز على الفور نقيض فكرة الانتساب والاعتزاز سائلة الذكر. وظهرت إلى العلن

<sup>5</sup> يشتمل التشويش، فضلا على مختلف السبل المعتمدة على نهج الكولونيالية التقليدية، انتقال الغرب - من ضمن أساليبه - ما بعدها، إلى الترويج لمستحدثاته الثقافية باعتبارها الأجدر، فهي مشبعة بالتقدمية على حساب الثقافات المحلية الوطنية التي يُلصق بها كل ما هو مُشأن ومُشِين، يمكن الاستزادة في هذا الموضوع من كتابات المفكر إدوارد سعيد مثلا، ومختلف الشروحات والمتابعات حولها مثل: بن ابيديري إخلاف، موقع إدوارد سعيد في الدراسات ما بعد الكولونيالية ودوره في تفعيل الأمن الثقافي، في: المجلة الجزائرية للأمن الإنساني، 7(1)، 42-59، أو حداد شافية، تأثير العولمة في بعدها الثقافي الهوياتي على الهوية الثقافية الوطنية، في: المجلة الجزائرية للأمن الإنساني، 4(2)، 228-249.

مفارقة صعوبة التموّج، ليس من منطلق جغرافي لأنه يمتد امتدادا، وإنما صعوبة ربط ذلك التواجد الجغرافي بما يزخر به من مكونات، بروابط تجعل منه وحدةً ومركبًا وجوديا متجانسا، يكفي بأن يركن إليه الوجدان الجمعي ويسمح ببعث التطلعات المعبرة عن غد مشرق.

والحقيقة أن الإشكال الذي يُشوِّش على الرصيد الثقافي للإنسان الجزائري والعربي إجمالا، يأتي بالذات من فكرة تلك الثنائية: الواقع المعاش 'المرفوض'، باعتباره من جنس الواقع العربي الذي يعاني في إطاره العام، والأفق المُبتغى 'المفروض' - لكن الافتراضي في غالبه، والذي يُنظر إليه باعتباره البديل الناجح والمرغوب، والذي يحوز عليه الغربي لا العربي؛ ويا ليتها كانت كذلك، لأن "سيادة الحضارة الاستهلاكية في عالم اليوم، التي رقيّ الترفيه تحت ظلها إلى مرتبة الثقافة، وهدم الجدار الفاصل بين الثقافة الرفيعة والحياة اليومية العادية" (هوبزباوم، 2013، 17)، زادت الوضع سوءًا. وهكذا فإن الظروف الطاغية على الحياة الثقافية العربية في الوقت الراهن، تتسم بعدم الثبات على حال بسبب كل ما يعترها، في مقابل علو كعب 'النموذج الآخر' من ناحية قدرة الجذب والسحب وسرعة التأثير - فيما يتجسّد بما يمكن تسميته 'متلازمة الاستعداد للإذعان والانصياع لكل ما هو غربي'. ذلك الانصياع يغذّيه المستوى المبهّر من عناصر الحضارة - أو على الأقل كما تتبدى - في الفضاء الغربي، الممهّد للكّم الزاحم من الإنتاج الثقافي، وعندما تضاف لها الانقطاعات المتكررة التي تسببها الأزمات التي لا تكاد تنتهي، سنجد أن كل هذا الوضع سيسبب من جهة؛ تكبيل المثقف الموكل له التصدي للعمليات الإبداعية، فتحول دون قدرته على مسابرة تطلعات المتلقي وإشباعها. ومن جهة ثانية، وعلى مستوى المتلقي الذي سيلجأ إلى الإعجاب؛ بل يُجرّ جرا للافتتان بما يسوّق إليه ثقافيا على صعيد 'الآخر' غير 'المحلي والوطني'، والذي كثيرا ما يُعد النموذج البديل المنشود.

وهكذا فإن مستويات التأثير والاختراق بلغت درجات متقدمة. إذ أصبح من السهل ملاحظة، أنه حتى في أحسن حالات بقاء النشاط الثقافي مرتبنا بالعناصر البنائية العربية المحلية - إبداعا واستهلاكا -، إلا أننا نجد أن النشاط يتأثر بطرق



التعبير والتقديم والاستعراض الغربية. ويحاول المبدع كما المتلقي المستهلك؛ إما إراديا أو بما يُعد أسلوبا مكتسبا، محاكاة وتقليد طرق التعامل مع تلك المنتجات الثقافية التي تحمل بالتأكيد سمات تغريبية<sup>6</sup>. وهذا خاصة في مراحل التقديم والاستعراض والتلقي، ما من شأنه أن يُصنّف في خانة مراوغة الذات الثقافية العربية.

هذا الواقع، يحيلنا إلى تساؤل مُربك، كيف لا، والأمر يُصوّر كما وأنه يصعب الإحاطة واسترجاع النموذج المحلي والوطني الأصيل في التعاطي مع العناصر الفنية إنتاجا واستهلاكا، وأصبح من السهل الاستسلام لفكرة نسيان ما حققته الأجيال السابقة في المحطات الإشعاعية في تاريخ الأمة، من سبق وانجازاتٍ منبثقة عن الهوية الأصيلة، لأن إنسان هذه الأمة عُرف دائما "بتذوقه للفنون والعلوم" (سعد الله، 1981، 142 و288) المتصلة بالتراث، وعنايته بها حتى في أحلك المراحل من تاريخه الماضي.

لكن ذلك الاتصال الدائم بكل ما هو أصيل أصبح مهددا اليوم أكثر من أي وقت مضى، كما تدرك ذلك أغلب الأطر الثقافية الغيورة، وكذلك كما يستشعره الإحساس الجمعي الوطني العام، من اتساع الهوة المتواجدة بين الفرد

<sup>6</sup> توسّعت مساحة التأثير بالنموذج الغربي لدى الشباب حتى شملت المأكّل والملفّظ والملبس -أو ما بقي منه- وتسريحات الشعر وكيفيات التصرف، بل واتخاذ القدوة في الرياضيين والمغنين والممثلين بهالاتهم الجديدة.

أما مع إنتاج واستهلاك المنتجات الأدبية والفنية، فلم يستثنى ولا فرع تقريبا، بسبب كثافة إنتاج الغرب وتيسير سبل نقله مترجما إلى العربية؛ من أفلام وأغاني ورواية وغيرها، يمكن الاستزادة مثلا من: بوردابن منيرة، الدبلوماسية الثقافية الأمريكية كقوة ناعمة وآلية إيديولوجية للهيمنة الثقافية في العالم العربي، المجلة الجزائرية للأمن الإنساني، المجلد 6(2).

وحتى أنه أصبح لمظاهر اللسان الغربي قدما في اللسانيات العربية-وبالتأكيد معلوم ما تمثله لغات الغرب بالنسبة للغة العربية-؛ أنظر مثلا: البار عبد الرحيم، 2014، مظاهر الفكر اللساني الغربي في اللسانيات العربية الحديثة، مجلة إشكالات، المركز الجامعي تمنغست، 6، ديسمبر 2014،

وتلخيصا لمقدار ذلك التأثير، ربما يكفي هنا ذكر نموذج ما يسمى "الفيديو كليب" بمختلف عناصره، لا سيّما من حيث إيقاع الصورة والألوان ومن يجسدها، لتشكيل صورة قد تكون كافية عن الوضع. يمكن الاستزادة في هذه الموضوعات من بعض الأبحاث مثل: أفينو ماريا، الغرب في الكتابة العربية، تر: حسين محمود ولمياء الشري؛ إنغليز ديفيد وجون هيوسون، 2003، مدخل إلى سوسولوجيا الثقافة، ترجمة لما نصير 2013؛ عبد الرشيد عبد الحافظ، 2004، الآثار السلبية للعولمة على الوطن العربي؛ ربيع محمد عبد العزيز، 2018، تأملات في الإشكالية الثقافية محنة الثقافة العربية.

وعناصر هويته الثقافية. والمتسبب الأول هو حالة الفراغ - والطبيعة لا تقبل الفراغ- بمقابل الكم الهائل من الاختراقات، والنتيجة حالة الشك والضعف في تقبل الأنا كما يفترض أن تكون، والتي تسرّبت إلى وجدان الإنسان العربي عموماً. هذا الأمر صار بالإمكان ملاحظته بسهولة، خاصة مع الأجيال الصاعدة التي زادت الوسائل والأجهزة التكنولوجية تكبيلاً، بحيث لا نكاد نتخيل شاباً ولا حتى طفلاً مستعداً للاستغناء عنها. كما شتتت الوسائط التكنولوجية الحديثة المختلفة إرادات وطاقات الأجيال بسبب مضامينها السالبة، والتي تسوّق للنماذج الغربية وأحياناً ليست بالقليلة لـ 'الأنموذج'<sup>7</sup>. تلك الوسائط تُوجّه الجميع إلى استهلاك نماذج أخرى غير الوطنية، والمحصّلة؛ تخيل ما يمكن وصفه بحجم 'الانقسام الثقافي' الذي أصبح يصيب بوتيرة متزايدة إنسان الأمة، ما يحث كل الأطر ذات الاختصاص بتعجيل إيلاء الاعتبار لهذه الحالة المركزية، قبل تعمق الإشكالية بما يمكن أن يُسقط الأجيال الصاعدة في فقدان الهوية أو ما يمكن الاصطلاح عليه 'اللاهوية'<sup>8</sup> الثقافية، وهو الأمر الذي يجب أن يكون قطعاً محظوراً.



<sup>7</sup> تدرج مدلول النموذج الهوياتي في سياسات الهوية القائمة، خاصة منذ استنهاضها في ظل فكرة اضطهاد فئات معينة عبر العالم، أنظر مثلاً: (Identity Politics, in : plato.stanford.edu)، إلى معنى الهوية "الخشنة" الجماعية التي تتشبه بها الجماعة، إلى الهوية الناعمة التي تميّز التوجّه الفردي في الإحساس بالهوية، يمكن الاستزادة مثلاً من: (رشيق حسن، 2010، الهوية الناعمة والهوية الخشنة في: journals.openedition.org/insaniyat)، وأيضاً: الدواي عبد الرزاق، 2013، في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات- الهويات الوطنية في زمن العولمة.

تم مع تزايد التداخل الثقافي في الزمن الإلكتروني، لم يعد بإمكان البعض من التمييز اليسير بين ما يُعتبر 'مورّذاتهم الثقافية ومغذيات هويتهم'، وبين غيرها من الدخائل التي يستقبلونها باستمرار من كل حذب وصوب خاصة عبر الوسيط الإلكتروني المتاح، الأمر الذي يجزّ هولاء إلى الإحساس بالغرابة والتيه وعدم الانتماء، وبالتالي بالأنموذج.

<sup>8</sup> مصطلح اللاهوية ورد في معناها مع الفيلسوف أدورنو Adorno في كتابه الجدال السالب 1966، استهدف به استخدام قوة الذات لكسر خداع الذاتية الجوهرانية انتقاداً لمثالية كانط وهيجل، يمكن الاستفادة من: مقال توالي محمد، مفهوم اللاهوية وتبعاته المثنولوجية والسوسيولوجية، ترجمة سعيد بلعشيش 26 نوفمبر 2022 في: bilarabiya.net/29303.html

لكن مدلول اللاهوية في هذه المحاولة البحثية مُستقى من نقيض القوة أي الضعف، بسبب كثرة التشويش.

### 3. التربية الثقافية مدخل لتحقيق الأمن الثقافي:

#### 1.3. موقع المدرسة من أدوار إيقاظ وتكوين الذائقة الفنية للناشئة:

إن البيئة المدرسية العربية ومنها الجزائرية التي يتعرع فيها التلاميذ والطلبة، طالها في الوقت الراهن هي الأخرى، ما طال باقي القطاعات من شتى صنوف التشويش بالرغم من الجهود المبذولة لحيادها عن تأثيرات الخارج.

وما زاد الوضع تعقيدا، هو التوجّهات العامة في التقدير غير المتوازن لموقع وحجم وأهمية بعض المواد الدراسية، والتي تأتي على رأسها المواد المنوطة بتغطية محتويات التكوين الثقافي الفني للمتعلمين، مثل التربية الموسيقية والتربية التشكيلية والتعبير الحركي والمسرحي، والموجهة أنشطتها بالأساس لإيقاظ وتشكيل وتكوين الحس الجمالي لأجيال المتعلمين. فضلا على اعتبار تلك الحصص الفنية فسحا للتنميس والترويح على قابلية وقدرة المتدرسين الاستيعابية المتشعبة، في أغلب المناهج، بحصص المواد العلمية التي تستهلك جهدا ذهنيا معتبرا.

ونتيجة لتلك التقديرات والاعتبارات، نجد المؤسسات التربوية في مختلف الأطوار تفتقد، في الغالب، للمقومات الأساسية المادية والبشرية واللوجستية، التي تسمح بإيجاد مواقف تعليمية مجدية توظف المادة الفنية، وتسمح ببلوغ الأثر التعليمي الإيجابي مداه. أخذا بنظر الاعتبار أن هدف أي مادة تعليمية "يجب أن يكون الارتقاء بنفس المتعلم نحو مزيد من الحقائق المكتسبة، نحو ممارسات متقنة وكذلك إحساس أكثر بالجمال" (Ponsard, 1909, 5)، هذا الإحساس بالجمال وكذا تنمية الممارسات المتقنة تتولاها، بكفاءة، المواد التعليمية ذات المحتويات الفنية كما تشهد عليه التجارب التربوية العالمية<sup>9</sup> الناجحة.

<sup>9</sup> للاستزادة أنظر: بوركارد فرانز-بيتر Franz-Peter Burkard، 2008، أطلس علم التربية، ترجمة جورج كتورة، 2013، المكتبة الشرقية.

إن الاهتمام بهذه المواد وإفراد مكانة لها في مختلف النظم، وخاصة التربوية، لم يكن بالصدفة أو ككفايات أو لرغبة سطحية. إنما ذلك الحكم بالميل إلى الاهتمام بتلك التفاصيل المتصلة بألوان النغم والإيقاع، ما كان ليكون إلا لثبات قدرة الألحان "التأثيرية"<sup>10</sup> (هوبزباوم، 10) في نفوس الناس، كما أن الإقبال والتمتع بانفعال جمالي على أشكال وألوان الأعمال الفنية المصوّرة والتشكيلية، ما كان ليحصل إلا لتضمن تلك الأعمال لمعان عميقة التعبير والدلالة. وأيضاً ما كانت الحركات التعبيرية التمثيلية التي تهديها حصص المسرح المدرسي للمتعلم لتؤثر على المتلقي، إلا لقدرتها على محاكاة الواقع الحركي الإيقاعي لحياة الإنسان في مختلف تجلياتها. أما التفسير العام لهذا الأثر الذي تحدثه المواد الفنية فيعود إلى أن جميع تلك التفاصيل الفنية مدخلها الحواس، ومدخل الحواس أقوى تأثيراً؛ لأن الفرد يشعر بما يتوفر في الفنون من اهتمام وطاقة تبلغ أوجهاً في فن الموسيقى، باعتبارها الفن القابل للانتقال دون اشتراط لإرادة المتلقي، وهذا بفضل اعتمادها وسيط الصوت المتميز عن أي وسيط آخر من الوسائط الموظفة في إبداعات الفنون، وعندما يتشبع الإنسان بذلك الاهتمام والطاقة اللذين توفرهما هذه الفنون وعلى رأسها الموسيقى، يصبح قادراً على تذوق كل ما هو جميل.

ويتحدث في هذا الصدد المؤرخ الإغريقي بلوتارك عن نجاح التربية اليونانية، الذي يعزوه إلى التربية الموسيقية بقوله: "ومهما يكن من شيء، فإن الذي يشب على دراسة الموسيقى وينشأ على تربية موسيقية ملائمة لتكوينه، فإنه سيتمسك بكل ما هو نبيل وكريم ويكون بعيداً عن كل عمل قبيح" (Sadak, 2006, 609)، علماً أن ما كان يعنيه مصطلح موسيقى في هذا العهد الإغريقي، ليس معناها

<sup>10</sup> مصطلح التأثيرية هنا لا نقصد حصره في مدرسة التأثيرية أو الانطباعية "Impressionism" التي وُجدت في القرن التاسع عشر ورافقت الأسلوب الجديد في التصوير منذ سبعينيات القرن 19، كما استخدم في موسيقى نفس الفترة مثل ما يتجلى ذلك في أعمال الفرنسي ديبوسي، إنما القصد من كلمة تأثيرية كصفة للتأثيرات التي تصيب متلقي الموسيقى ذهنياً وانفعالياً وجسدياً واجتماعياً، كما أثبتته دراسات عدة، للاستزادة أنظر مثلاً، إضافة إلى: هوبزباوم إريك، Hobsbawm، 2013، أزمة متصدعة؛ مجمع اللغة العربية، 1957، مجموعة المصطلحات العلمية والفنية؛ بيومي أحمد، 1992، القاموس الموسيقي مصطلحات؛ بورتنوي جوليس، 1954، الفيلسوف وفن الموسيقى، ترجمة فؤاد زكريا، 1974.

كما نعرفه اليوم من أنغام وإيقاعات وأحيانا كلمات دون سواها، وإنما هي مختلف مداخل الثقافة من آداب وعلوم وفنون باعتبارها بواغث الحضارة، بالإضافة إلى الإنتاج الموسيقي بمحتوياته.

تكررت تلك الأهمية المسندة للتربية الموسيقية عبر مختلف الحضارات والأزمان في النماذج التربوية الموسوعية الجادة، وعديد البحوث والدراسات تقول بأن الفرد الذي يستطيع أن يؤدي أداءً موسيقياً بنفسه، يمكنه أن يحكم حكماً صحيحاً على أداء الآخرين؛ ليس موسيقياً فحسب، بل من جوانب عدة. لأن الفرد يكون قد استفاد من تكوين الحس والعاطفة، كما غذى نشاطه الذهني والتواصلية بفضل تنمية التأزر الحس-حركي، والذي تتيحه أنشطة هذه المادة أكثر من غيرها من سبل الإرشاد؛ على غرار القولبي والذهني، اللذين يشترطان استعداداً وإقبالاً ليس من السهل بعث نشاطهما في مكانين وإدراكات المتلقي المتعلم المشوّش عليه، خاصة في زمن 'الفوضى الخلاقة'.

### 2.3. أنموذج المدرسة الجزائرية في تكوين ذائقة الناشئة الفنية الموسيقية:

تشكّلت القناعات الأولى بأهمية المواد الفنية، مع بواكير نضج استعادة استقلال الوطن، من خلال تبني ما أكدّه الكثير من المهتمين بالتربية على المستوى العالمي، "أن انعدام الثقافة يجعل المجتمع مضطرباً في تحديد مرجعيته الوطنية، وعليه كان لابد من تعريف أبناء الوطن الجزائري ببلادهم وتاريخهم وحضارتهم، وهذا ما اصطلح عليه بـ 'الجزارة'؛ والتي تعني جعل كل مضمون دراسي جزائري مائة بالمائة، مع إزالة الآثار الوافدة من ثقافات لا صلة لها بالجزائر والعروبة والإسلام. فلقد أرادت الجزائر أن تبعث الشخصية الجزائرية الأصيلة من واقع جزائري محض" (بريمة، 2014، 26)، وتجسد هذا فيما يمكن اعتباره مشروعاً للثورة الثقافية التي حاولت أن تهيئ أدواراً للمواد الفنية ومنها التربية الموسيقية.

بدأت تلك المحاولات<sup>11</sup> مباشرة عقب الاستقلال عام 1962، وأول نموذج كان كُتِبَ نصوص وأشعار جمعها منصور بوعلام<sup>12</sup> لشخصيات معروفة في الساحة الفنية والأدبية الجزائرية والعربية، نذكر منهم: مفدي زكريا، عبد الحميد بن باديس، أبو القاسم الشابي، معروف الرصافي، وأحمد سحنون. أما الألحان فكانت لمجموعة من الملحنين منهم منصور بوعلام نفسه، محمد بوزيدي، صالح المهدي، ومحمد فوزي "ملحن النشيد الوطني قسما".

شهد بعد ذلك مجال التربية إصدار المجموعة الثانية للأغنية التربوية، عام 1970، حيث حوت مختارات من الرصيد الشعري العربي والجزائري، الذي استأنس الأطفال بنصومه، من خلال نشاط المحفوظات بكتبهم المدرسية، أو كقصائد قصيرة في كتب مطالعتهم، أين قاربت أغاني وأناشيد هذا الديوان ستون نموذجا. والتي وضع ألحانها المرحوم الأمين بشيشي الفنان والوزير الأسبق، ومن أشهر نماذج هذه المجموعة أنشودة 'حديقتي آن الأوان'، التي ردها أجيال من الأطفال.

ثم حلت سنة 1976، والتي عرفت تحولا هاما في تاريخ المنظومة التربوية الجزائرية، وذلك بسبب إصدار أميرية 16 أبريل 1976، التي ستضع ملامح النموذج الجديد للمدرسة الجزائرية، وستكون التربية الفنية/الموسيقية من بين مكوناتها بطريقة رسمية، وذلك بالانتقال من وضعية "النشاط الثقافي" إلى مادة "التربية الفنية"، فأكدت المادة "25" من ذات الأميرية على تثبيت المواد الفنية، ونصت صراحة على أن "المدرسة الجزائرية توفر للتلاميذ تعليما فنيا يوقظ فيهم

<sup>11</sup> يمكن الاستزادة في الموضوع من بحث كريمة بلقاسم، التربية الموسيقية في المنظومة التربوية الجزائرية من 1962-2022، في إطار رسالة الدكتوراه تحت اشراف الأستاذ نجيب شيشون، والمنشور في: مجلة طبنة للدراسات العلمية والأكاديمية المجلد 05 (1)، 1865-1853.

<sup>12</sup> فنان موسيقي ومسرحي ومدرس موسيقى من العاصمة الجزائر، معروف بلقب بوعلام تيتيش (1908-1989)، أدمج آلة "الزرنه" النفخية في أداء مقطوعات الموسيقى الكلاسيكية الموروثة عن الأندلس قبل أن يُلبس هذه الآلة طبوع الموسيقى الشعبية العاصمية بفضل مساهماته. للاستزادة أنظر: منتدى سماعي [sama3y.net/forum/t=93310](http://sama3y.net/forum/t=93310).

الأحاسيس الجمالية والذوق الفني الرفيع، ويمكنهم من المساهمة في الحياة الثقافية والاطلاع على التراث العربي والعالمي" (بلشير، 2012، 62).

ومن بين الأسباب المقدمة من طرف وزارة التربية لتبرير خيار تشجيع تدريس التربية الموسيقية في المنظومة التربوية الجزائرية "اعتبار أن التربية الموسيقية تذهب النفوس وتصل المواهب وتنمي المدارك وتنتشل الأجيال من براثن الجهل الموسيقي الذي هو آفة، باعتبارها إحدى المقومات الثقافية للشخصية الوطنية" (مناهج التربية الموسيقية، 1996، 33).

واستكملت المسيرة مع سنوات الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين، أين توسّع تدريس مادة التربية الموسيقية في مدارس التعليم العام، وأصبح يشتمل على تربية الذائقة الفنية بما تحويه من تنمية الحس الإيقاعي وتربية الأذن والحنجرة، وهذه العناصر تشترك وتسهم في جميع نواحي التربية، ويمكن اعتبار هذه المساهمة الهدف المباشر للتربية الفنية التي تسهم في التطور المنسجم للملكات الإنسانية، كما قال المربي ستين (القدسي، 1981، 70). لكن وبالرغم من هذه المحاولات، لا زالت مادة التربية الموسيقية كما باقي المواد الفنية تروح في مستويات لا ترقى إلى المساهمة في بعث المشروع التربوي الثقافي البناء<sup>13</sup>.

### 3.3. نشاط الاستماع والتذوق الموسيقي كسبيل لبناء قاعدة ثقافية سمعية عالمية:

يُعد نشاط التذوق الموسيقي أول نشاط موسيقي أدرجته المنظومة التربوية الجزائرية في المدارس، وكان ذلك اقتباسا من فكرة الوعي العالمي بأهمية التربية الموسيقية في مسار التنشئة المتكاملة للمتمدرسين. تأتي تلك الأهمية من باب إيقاظ وتنمية الذائقة الموسيقية والجمالية للتلميذ الذي هو مواطن الغد.

حيث "ازدادت عناية معظم المؤسسات التربوية في العالم بعنصر الذوق الموسيقي كجزء من مادة التربية الموسيقية، فعمدت هذه المؤسسات إلى تشجيع

<sup>13</sup> إلا أنه مع استحداث وزارة التربية الوطنية لشعبة الفنون في مرحلة التعليم الثانوي والتكنولوجي ابتداءً من السنة الدراسية 2022-2023 تحت القرار رقم 37 المؤرخ في 14 أبريل 2022، والتي تنتج المستفيد من التكوين بكالوريا فنية، تتوسّم خيرا في نهضة المشروع الثقافي الفني لغد مجتمع ذواق بناء، بشرط استكمال عمليات الرعاية والتجسيد بتظافر جهود جميع الفاعلين في شتى القطاعات ذات الصلة.

تأليف الكتب الموسيقية التي تبحث في التذوق الموسيقي، بما يلائم مختلف أطوار نمو الطفل، كما لجأت إلى تسجيل مجموعات مختارة من روائع المؤلفات الموسيقية والغنائية على أسطوانات وأشرطة، وعمدت إلى تيسير شرائها بأسعار معقولة من قبل المؤسسات التعليمية مصحوبة بالشرح والتحليل اللازمين" (بلشير، 75)، قبل أن تُقحم الوسائل والإمكانيات الحديثة في العملية، وهو الأمر الذي سهّل مهمة الأستاذ ومكّنه من الاستحواذ على أرصدة معتبرة من الخيارات الموجّهة لعمليات الاستماع والتذوق للتلاميذ، مما تم اختياره من قبل المربين والاختصاصيين الموسيقيين بعد إخضاعها لمعايير وضوابط مدروسة.

يوظف نشاط التذوق الموسيقي في حصة التربية الموسيقية عادة من أجل "تنمية تذوق الموسيقى الجيدة جزائرية وعربية كانت أو عالمية، والتدرج في ذلك للوصول بالتلاميذ من خلال سنوات الدراسة العامة الابتدائية والمتوسطة والثانوية إلى اكتساب القدرة على سماع روائع الإنتاج الموسيقي والغنائي العربي والعالمي، وتذوقه وفهمه وحبّه ومعرفة أهم مكوناته المتعلقة بالأسلوب والقالب والنغم والإيقاع والتمتع به" (القدسي، 97)، هذا ما جعل القائمين على الشأن التربوي الجزائري يدرجون هذا العنصر الأساسي في حصة التربية الموسيقية من أجل تثقيف التلميذ، وإعطائه أرضية ثقافية موسيقية سماعية عامة. إذ تُستغل عناصر هذا النشاط في تعليم آداب الاستماع والإصغاء والحوار للتلميذ، وتنمية مستوى ذائقته السمعية؛ وما أحوجنا إلى إعادة الاعتبار إلى هذه الآداب التي تُعد أساس باقي الآداب التي تستند كلها لكفاءات الاستماع والإصغاء والحوار كما أظهرته الدراسات العلمية المقدمة في هذا المجال.

#### 4. التعليم الفني مفتاح لإبقاء الاتصال بعناصر الهوية:

حين يظهر جليا كما هو عليه الحال في زمننا الإلكتروني، طغيان النموذج 'الأخر' غير الانتمائي -بمفهومه التقليدي- بشتى مظهراته، بالتضليل على مخلفات الرصيد الثقافي الوطني، حيث لا اعتراف واحترام للخصوصيات، بل يمكن أن تُستهدف وتُحتل كل فراغات متاحة غير مصانة، وتعويضها ببدايل سريعة الالتصاق والإغواء، بما يكفل التلاعب بعقول الناشئة بل بضمير



الحضارة، ولا شك أن بروز هذا الوضع يعود إلى حالة الضعف التي تشكلت بسبب "الانحلال الداخلي والخطر الخارجي" (سعد الله، 37) بما يشبه وضع الأمة في عهود سبقت، لكن بتحديات أكبر هذه المرة، وإذا بلغنا هذا الحد؛ يصبح البحث عن الحلول الكفيلة بحفظ ما يمكن حفظه أمراً حتمياً.

وتلوح لنا مخرجات الفعل الثقافي كواجهة لصون مقومات الحضارة، باعتبار تجلي الثقافة في كل إبداع وابتكار، يبلغ أوجه في كل أثر، تُجمع أو تكاد مختلف شرائح المجتمع على استساغته بسلاسة وإقبال، عسى أن يكون ذلك الأثر في سبيل المقارعة لتحديات النشاط الثقافي لـ 'الأخر' في إطار كوني، بتضمّنه عناصر مقومات الحضارة الثقافية الوطنية.

ومع إدراك ووعي أهمية تلك المواد التعليمية الفنية التي ينمو في فضائها أجيال الناشئة، وما تتطوي عليه من طاقة وإمكانات إيجابية خاصة المتصلة بالسمع والذائقة السمعية والجمالية، قد تتيح لنا هذه السانحة تخيل بعض الحلول بما يمكن عدّه قسماً من القطاع الكفيل بالاعتناء بالقيم الهوياتية للمجتمع، وهذا من باب مساهمة مضامين تلك المواد الفنية في توجيه وتشكيل الحس الجمالي الذي به تتم رعاية المكونات الأساسية لمركب الثقافة. هذا الامتياز الذي قد تحظى به مثل هذه المادة التعليمية تبرّره الاعتبارات الأساسية التالية:

1. إقبال الناشئة على الأعمال ذات الأنساق الفنية النغمية والإيقاعية وارتياحها لها، لما تتضمنه قدرة الأصوات والإيقاعات والألوان الجميلة من بعث السرور في الحواس، ما يجعل الأطفال والشباب متحررون مع هذه المواد الفنية من "عقدة" القيود والقوانين والزامية الانضباط التي هي ملتصقة بعمليات التعلّم في الغالب، خاصة في ذهنيات من لا يمتلك ما يكفي من محفزات الإقبال على عملية التعلّم. فيعتبر النشء المواد الفنية أقلّ قيوداً وقوانيناً من غيرها من المواد التعليمية إضافة إلى أنها ممتعة وشيقة، رغم أنها في الواقع أكثر التزاماً بتلك الضوابط، لكن عامل المتعة بالإضافة إلى المشاركة الجماعية والحركية الإيقاعية، وتقاسم الأدوار في قالب التشويق أثناء أداء النشاطات، كل هذا يبعث على النشاط في حيوية، ويجعل هذه المواد التعليمية مقبولة.

والإقبال على التعلم هي الخطوة الأولى الأساسية لبقية الخطوات، ويبدو أن هذه المواد الفنية توفره، ما يفسح المجال للمضي لمراحل أخرى مبتغاة؛ أكثر أهمية، لأن العارفين المتذوقين أكدوا مساهمة تلك الأعمال المسموعة في إحداث استجابات في السامع تؤدي به إلى السلوك القويم، وهو الرأي الذي دافع عنه الخبراء والفلاسفة باعتباره الغاية الأهم لظاهرة الموسيقى.

2. اكتتاز تلك الأعمال الفنية، لأبعاد القيم والمبادئ والعادات والتقاليد والثقافة الوطنية، من خلال رصيد الموضوعات الفنية ذات الصلة بالتراث الوطني، والتي درج المتلقي على تذوقها عبر مختلف المناسبات والوسائل، مما أسهم في إكسابه تجربة وخبرة سمعية، خاصة وأن الخبراء يعتقدون "أن الاستعداد لدراسة التربية الموسيقية له علاقة وثيقة بالخبرات الموسيقية السابقة للفرد" (راجح، ب.ت، 436). مع العلم أن تلك الأعمال الموسيقية وباقي الأعمال الفنية تمتلك المواصفات اللازمة لتكون خير من يعبر عن تلك الأبعاد القيمية، لأنها تلخص الأعمال الفنية بجمالية وتعبير فائق وبغاية تكاد تخلو من النشاز، كما تبث في وجدان المتلقي مشاعر وطلاقة لا تُضاهى. وتسهم في "خلق نموذج إنشائي متميز يهب للحياة نسقا معينا، واتجاهها ثابتا في التاريخ بفضل ما وهب من أذواق وتناسب جمالي" (بن نبي، 1971، 109).

3. انضواء تلك القطع الفنية على 'التقنية' التي تضبط مخرجاتها، وأقصد بالتقنية هنا؛ المقدار العالي من الضبط الذي يلزم مكونات تلك القطع. "فمساراتها النغمية والإيقاعية الملهمة من نظام التوافق الطبيعي تُعد من أدق البناءات والأنظمة التي اهتدى إليها وصنعها البشر. باعتبار النظام النغمي -الذي يعتمد البناء اللحني لكل فكرة لحنية- هو الأسلوب المستخدم في صياغة الألحان وتركيبتها بمزج الدرجات الصوتية بعضها ببعض، فيتشكل بفضل ذلك النظام النغمي، وبرفقة النظام الإيقاعي، نسيج نغمي-إيقاعي متماسك يحمل طابعا متميزا ذو هيئة كاملة الملامح" (شيشيون، 2022، 5-6)، إذا أضفنا له الاعتبار القائل بأن الموسيقى هي "الفن الأكثر نقاءً والنابع من المشاعر" (فيبر، 1921، 54)، فيصبح النسق الإيقاعي- النغمي يبرز امتلاكه قوة دافعة للطاقة الحيوية للإنسان كما لسائر الكائنات. وهكذا، فتجسد التوافق بين إيقاع الوحدة العضوية

للنفس والجسم وإيقاع القطعة الموسيقية، ما كان ليحدث إلا بتأتي المهارة التقنية اللازمة لتنفيذ وأداء الأنشطة التطبيقية لمختلف تلك القطع الفنية، تلك المهارة التقنية تتطلب ليس فقط تكويننا -لا يمكن في كل الأحوال أن يكون قصيرا- وإنما قدرةً واستعدادا للتذوق؛ وهو ما يضمنه ويوفّره نشاط "الاستماع والتذوق" أحد أنشطة حصة التربية الموسيقية بالمدرسة الجزائرية كما أسلفنا القول.

وحتى نتقرب من تخيل ولو جزء مما يمكن عدّه ثراءً وعمقا مهاريا لا يتيحها باقي الأنشطة التعليمية-التربوية أكثر مما يتيحها نشاط التذوق والإنشاد، قد يكفي إيراد ما أخبرنا به أحد العارفين المجيدين الأوائل في البيئّة العربية في العصور الوسطى وهو 'ابن سريج' عندما راح يخبرنا عن صفات الإنشاد أو الغناء الجيد في عصره فيقول: "المصيب المحسن من المغنين هو الذي يشبع الألبان بالزائدة ويملئ الأنفاس ويعدل الأوزان ويقحم الألفاظ، ويعرف الصواب، ويقوم الإعراب، ويستوي في النغم الطوال، ويحسن مقاطع النغم القصار، ويصيب أجناس الإيقاع، ويختلس مواقع النبرات ويستوي في ما يشاكلها في الضرب من النقرات" (فارمر، ب.ت، 133). ولنا تصور الكمّ المعبر من المهارات متعددة المشارب التي يحوزها المتعلم إن نحن أمعنا التدقيق في أبعاد كل من تلك الصفات التي أوردتها ذلك العارف، والتي لم يكن ليقول بها لولا تأكّده من الأثر الحاصل من ملاحظاته وممارساته.

وهذا خبير آخر يبين صفات قطعة موسيقية جيدة، فيقول:

- يجب أن يكون لها ملائمة ومطابقة في أسلوبها ونسقها، بمعنى أنها يجب أن توظف نظام موحد للتوقعات والاحتمالات.
- يجب أن تمتلك وضوحا في القاعدة القصدية (أي ما تقصده).
- يجب أن تمتلك التنوع والوحدة وكل الأنواع الأخرى التي بالسهولة بمكان أن نجدتها بعد اكتمال القطعة.
- ينبغي في علاقة النص الشعري بالموسيقى، كما يقول الفيلسوف العربي الكندي " أن يكون القول العددي -أعني الشعر- الملبس للحن مشاكلا في المعنى لطبع اللحن، وفي نسبة زمانية - أعني الإيقاع - مشاكلا لمعنى اللحن"

(زكريا، 1962، 15)، في إشارة منه لضرورة توافق كلا من موضوع الشعر والإيقاع مع لحن العمل الموسيقي.

هذه الصور وغيرها تبين بما لا مجال فيه للشك، مستوى الذوق الرفيع الذي ساير نتائج الأعمال الموسيقية في الحضارة العربية، والتي يتطلب مسابقتها توفر قدرة تقنية بذوق فني جمالي، تتأتى فقط من خلال برنامج محكم طويل المدى يبدأ مع السن العمرية الأولى للناشئة.

وباعتبار أن القدرة التقنية هي من تطور العالم، من خلال تمظهرها في المهارة المهنية المتخصصة ذات الأهلية، بامتلاكها لسلطة الخبرة كما يقول الخبراء والمختصون. تصبح تلك الأعمال الفنية-الثقافية، إحدى القاطرات التي تجر كل جنوح إلى التقدم، بشرط الانتباه الجمعي إلى هذه الميزات بعيدا عن ركنها في مصف الكماليات أو اللجوء إلى استخدامها عندما تتحين المناسبات، كما هو دارج في أغلب قراءات الأقطار العربية والمحلية في استخدامها للتمظهرات الثقافية التعبيرية بشتى ألوانها. إذ يامعان النظر في مناسبات بروز هذه الأعمال الفنية والعناية بظهورها نجد على الفور عقلية التوظيف المناسباتي، رغم أن اللافت أن تلك الأعمال الفنية ومنها النغمية-الإيقاعية من تعبر أحسن تعبير عن كنه تلك المناسبات باختلاف مواضعها بين الاجتماعية والوطنية والتربوية والوجدانية-الروحانية. لكن يبدو أن الجرّع التي تستهلك مع حلول تلك المناسبات تبعد الالتفات إلى أهمية حضورها في غيرها من الأوقات لتعميم أدوارها وفعاليتها.

## خاتمة

مع التحديات المואكبة لانتشار تأثير الوسائل التكنولوجية الحديثة<sup>14</sup>، واختراق وسائط التواصل الاجتماعي لنسيج المجتمع، وما تروج له من شتى النماذج والصنوف التعبيرية "الفنية"، والمستلهمة في غالبها من مصادر غير متصلة بالتراث القيمي والحضاري الوطني. بعض تلك النماذج التعبيرية الغربية يحمل صفات لتعديل بل تبديد أو اصر الهوية، بما قد يصيب النشء ب'اضطراب الهوية'، في استغلالٍ شبه تام للوعي الوطني الجمعي لما يواجه الأجيال الصاعدة من تحديات سالبة خطيرة العواقب. نُصبح بهذا أمام تحدٍ غير مسبوق، يحتم علينا إيلاء أهمية بالغة لمثل تلك المواد التعليمية ذات المحتويات الفنية، بتوجيه انتباه واهتمام الأجيال الصاعدة لما يجب أن يُعد بدائل تغنيه عن الانصياع التام لتلك النماذج و'القنوات' التغريبية الساحبة.

إن ما يليق القيام به بدايةً، هو توجيه العناية الجمعية للمجتمع إلى وعي حقيقة الواقع النسقي-الصوتي المفروض على ذوق النشء، ويكفي رصد توجهات المحتويات الإلكترونية، التي تتفاعل معها الأجيال الصاعدة ويروجونها فيما بينهم، لاكتشاف ما من شأنه أن يفاجئنا؛ ليعقبها بعد ذلك، بذل الجهد الثقيفي اللازم الذي محصلته تعديل طرق النظر والحكم على ما يسمى الأعمال والأنشطة الفنية ذات الأنساق النغمية-الإيقاعية، بتجاوز تقبل تلك المضامين خلال المناسبات دون غيرها، إلى أفراد مواقيت لها مع تفاصيل الحياة التعلّمية طوال فصولها.

وعند تشكّل هذه القناعات بشكل كاف، يأتي الدور على وضع خطوات عملية لهذه الرؤية الإصلاحية، والتي تكون وفق منهجية يعمل على تأصيلها خبراء وطنيون وبرعاية المؤسسات الرسمية، ولن يكون لذلك أحسن من حاضنة المدرسة والبرامج التعليمية التي تتيح تلك الإمكانية. منطلق ذلك يكون بالاستفادة مما أطلعنا به التجارب العالمية بما فيها العربية-الإسلامية في فترات إشعاعها حول الموضوع، أن أمر توظيف الأعمال الفنية المحتوية لمبادئ وقيم الثقافة الوطنية بشتى

<sup>14</sup> موضوع الانفلات التكنولوجي عمق من استعراء القيم خاصة لدى الشرائح الهشة، ما يُعجل الانتفات إلى تفعيل المكايح بوعي، أنظر مثلا: شرارة وبوعامة، واقع الهويات السائلة في سياق المناقفة الجديدة - دراسة تقييمية، في: المجلة الجزائرية للأمن الإنساني(1)5، 680- 702.

أبعادها، لا يتأتى سوى إن رافقت تلك الأعمال الفنية تربية الأفراد منذ وهم في المدرسة، حتى ترسخ تعاليم الجمال والذوق الرفيع المستند لقيم الهوية. هذا الإحساس بالجمال الذي منتهاه جمال الانتماء والمواطنة والبذل في سبيل الوطن، وهو الهدف الأسمى الذي تتولى المواد الفنية في المقام الأول تكوينه في وجدان المتعلمين إذا توافرت لها شروط النجاح، والذي لا يتأتى سوى بمزيد من الاهتمام الواجب تقديمه من لدن أهل الاختصاص، بشرط توفر الإرادة والرعاية من المنظومة التربوية والثقافية الرسمية. وهو الطريق المختصر للاستفادة من ذلك الامتياز الذي لا تقدمه باقي الوحدات التعليمية، طالما تربية الذائقة الجمالية المتشربة من أبعاد 'الانتماء' - إن صح القول - تُتاح بالتركيز على الجوانب الذاتية لعملية الإدراك والإحساس للمتعلمين، ويبدو أن ترسخ تعاليم الجمال والذوق والانتماء باحتضان كل ما يتصل بمقومات الهوية الوطنية هو السبيل الممكن لمقارعة سلب الهواتف المحمولة والأجهزة الذكية لذاتية أبنائنا من بين أيدينا عبر تلك المحتويات التغريبية.

أهمية هذه المقاربة الذاتية في عمليات الإدراك الحسي التي ترافق تلك المواد التعليمية الفنية، يبررها الاعتبار القائل أننا حينما ندرس الإدراك الجمالي والذائقي فنحن "ندرس خبرات الأفراد، ولا ندرس بالفعل ما يوجد في العالم الخارجي" (غيث، 1979، 323)، ذلك العالم الخارجي، الذي سبق وأشارنا إلى تصدعه وعدم ثباته فيما يتصل بالفضاء المكاني للوطن، أضيف له المتسلل الاصطناعي الذكي المدجج بمختلف صنوف التشويش والسلب. ليبقى الملجأ الآمن يكمن في 'أنا' المتكوّن الداخلية إن عرفنا سبل الوصول إليها، حتى نستطيع تدريجياً صب المزيد من عناصر مقومات الهوية الثقافية 'الجديدة' بالنسبة للمتكون - بسبب العزلة عن المحلي الوطني والانشغال والافتتان بالآخر - لكنها 'القديمة الأصيلة'؛ باتصالها بتراث الرصيد الفني المعبر عن الهوية الثقافية الجزائرية والعربية، تلك العناصر تصبح أقل اغتراباً وأكثر قابلية للإحساس الجمالي وتذوقها من لدن التلميذ والمتلقي الجزائري والعربي، لأنها أسرع مترجم وناقل لباقي المقومات الأساسية للمكون الحضاري الوطني التي هي قابلة للاستيقاظ.

وإن التمكّن من خلق تلك الوضعية التحفيزية سيفيد لا محالة في إعادة استرعاء اهتمام وإقبال الناشئة على تقبل الأنا في حاضنتها الوطنية بكل أبعادها. ويمكن رسم مزيد من البرامج المضمّنة لمختلف أركان مقومات الهوية بإدراج - بالمرّة - مضامين حسّية وكذلك عقلية بكثير من الأريحية وفق منهجية حكيمة، مستفيدين من أن امتياز " نشاط الثقافة بالنسبة لعناصرها الداخلية يتم بصورة عادية، لأن يقظة الضمير أمام المشكلات الداخلية أو العضوية تتم هي الأخرى بصورة تلقائية" (بن نبي، 115) متى أحسنا التعامل معها.

#### قائمة المراجع:

- بريمة، علي. (2014). "تطور النظام التربوي الجزائري منذ الاستقلال وعلاقته بالتنمية الاقتصادية"، في مجلة التواصل في العلوم الإنسانية الاجتماعية، ديسمبر 2014، العدد 4 المجلد 20/الشابكة/ (جامعة باجي مختار - عنابة)، ص 19-36.  
بتاريخ 2021/10/26 URL: <<http://https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/27/20/4/41816>>
- بلشير، عبد الرزاق. (2012). المواد الفنية ومكانتها في المدرسة الجزائرية: دراسة ميدانية تحليلية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أبو بكر بلقايد، قسم الثقافة الشعبية، تلمسان. 2011-2012.
- بن نبي، مالك. (1971). مشكلة الثقافة. ترجمة عبد الصبور شاهين، الطبعة 04، 1984، الإعادة 12، 2006، دمشق: دار الفكر.
- راجح، أحمد عزت. (ب ت)، أصول علم النفس، لبنان، بيروت: دار القلم.
- سعد الله، أبو القاسم. (1981). تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 1، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- سعيدوني، ناصر الدين. (2021). المسألة الثقافية في الجزائر: النخب- الهوية- اللغة- دراسة تاريخية نقدية. الطبعة 1، بيروت، 2021، قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- شيشون، نجيب. (2022). "في طبيعة الموسيقى وإمكانياتها". في بشائر العلوم، جانفي 2022، العدد 01، رياضيات وموسيقى [الشابكة]. القبة: المدرسة العليا للأساتذة.  
بتاريخ 2022/01/29 URL: <<http://ens-kouba.dz/magazine>>
- الغزالي، محمد. (1998). الغزو الثقافي يمتد في فراغنا. الطبعة 2، 2005، القاهرة: دار الشروق.
- غيث، محمد عاطف. (1979). قاموس علم الاجتماع. الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- فارمر، هنري جورج. (ب ت). تاريخ الموسيقى العربية حتى ق 13، تعريب حسين نصار. مصر: مكتب مصر.

- فيبر، ماكس. (1921). الأسس العقلانية والسوسولوجية للموسيقى، ترجمة: حسن صقر. الطبعة 1، يوليو 2013. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- القدسي، محمد كامل. (1981). "أضواء على التربية الموسيقية العربية". في بحوث ودراسات المؤتمر السابع للمجمع العربي للموسيقى. (التربية والثقافة في الوطن العربي). الجزائر: 1981/02/10-02.
- مناهج التربية الموسيقية للطور الثالث من التعليم الأساسي. (1996). الجزائر: وزارة التربية الوطنية..
- مؤنس، حسين. (1978). الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها. سلسلة عالم المعرفة. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- هوبزباوم، إريك. (2013). أزمنة متصدعة: الثقافة والمجتمع في القرن العشرين. ترجمة سهام عبد السلام، 2015، بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،
- يوسف، زكريا. (1962). موسيقى الكندي. بغداد: مطبعة شفيق.
- PONSARD, Abbé Philippe. 1909. La formation du sentiment esthétique chez les enfants, 2007, Alger : El-Borhane,
- SADAK, Amal A.M. 2006. Researches and studies in psychology of music and music education, Cairo: The Anglo-Egyptian bookshop, 2006.